بين الكآبة والفرح

عطاء الانسان العربي

بقلم أديب نحوي

يخطر لي كلما اشتركت مع مواطنيّ في احياء عيد من الأعياد ان اسأل نفسي عن سر هذه الكآبة الكامنة في عيوننا، نحن الشباب العرب حتى في ليالي العيد. فكأننا ندعى كل مرة للإحتفال بعيد ليس هو عيدنا ، وإنما نحضره مجاملة ، فنهتف ونغني ونضحك، دون ان ينفذ الى اعماقنا شعاع واحد من فرح حقيقي.

العيد بالأصل — اي عيد كان — فرح كله ، فهو يحيي مهما تعددت ألوانــه ذكرى ظفر الإنسان على المصاعب . هو مثلا : ذكرى نهاية مرحلة العبودية في حياة امة ، او ذكرى انتصار دعوة سامية في حيـاة نبي . هو اينما كان ، احياء لذكرى الذين لا يموتون ابداً ، ذكرى الذين لم يحتفلوا بالعيد من قبل لأنهم هم الذين خلقوا من تضحياتهم معنى الاحتفال بالعيد .

ما أكثر ما يقف البشر في كل عيد مطرقين برؤوسهم خشوعاً أمام فرار البطولة في تاريخهم ، ممسكين بالأيدي شبابيك الماضي السحيق . ما أكثر ما يطل الأحياء بعيون المحبين المتيمين على المعجزات التي صنعها الأبطال الراقدون في سكون المقابر تضيء في أعماق القرون البعيدة زيتاً مقدساً ، يظنه الناظرون مؤنساً وحدة النائمين في أحضان الأبد ، وهو ليس إلا .. ليبدد ظلمة الطريق امـام اعين الباحثين عن آثار هؤلاء الأبطال في عتمة التاريـخ .

ما أكثر ما يتشابه جميع هؤلاء في طبيعة الشعور الذي يدفعهم للاحتفال بالاعياد.

كل الملايين التي تهزها ذكرى البطولة متماثلة في حبها للأبطال الذين هيأوا لهذه الذكرى ، متماثلة في شوقها لتقليدهم ، في رغبتها المحرقة للاندفاع وراءهم.

ولكن .. ما أكثر ما يختلف البشر في طريقة التعبير عــن شوقهم للبطولة وفهمهم لفرح العيد :

منهم من يمر الفرح بسطح نفسه ، كحصاة القتهـا يد كسولة الى صفحـة الماء ، فتداعت حولها الدوائر والمنحنيـات ، متسعة متباعدة ، مرئية غير ملموسة ، إلى ان تتلاشى مع امتداد النظر ، فلا تكاد الحصاة تستقر في القعر حتى يكون الماء قد عاد الى ركوده من جديد .

ومنهم من يصل الفرح بالعيد إلى اعماقه فيفجر في نفسه ينابيع الانتاج المبدع الخلاق . وهذا هو .. معنى العيد الحقيقي .

العيد بداية دائمة التجدد ، وليس ذكرى لنهاية مرحلة معينة من الحياة فحسب.

اي معنى لنهاية مرحلة العبودية في حياة امة من الأمم مثلا عندما تتجمد قيم الحرية المكتسبة حجراً منحوتاً يمجد العيد في تماثيل الأبطـال الذين صنعوه ؟

مثل هذا العيد لا يفرح به احد . لا هو يدخل بيوت الأحياء حاملا اليهم لهب التفاعل مع مرارة الحياة ، ولا هو ينزل قبور الأموات ، حاملا اليهم نعمـة الرضى عما كانوا قد قدموه من تضحيات .

العيد عند من يهزهم معنى العيد ، فرح منتج ، فرح فاعل في النفس ، دافع إلى الأمام ، فرح لا يمكن ان يتجلى إلا في انطلاق دائم متجدد متحول إلى ما هو احسن وأفضل وأعلى.

هؤلاء هم الذين يسير اليهم العيد متوهماً انهم ما زالوا في المكان الذي تركهم فيه في عامه السابق، فاذا هم على طريق العيد يسيرون.. ويسيرون ، فهو يلتقي بهم ذاهلا غير متوقع ان يلقاهم في الموضع الذي وجدهم فيه ، وهم يلتقون به فرحين ، عارفين من وحي ثقتهم بانفسهم انهم ملاقوه في الموضع الذي وجدوه فيه.

هؤلاء هم الذين يظهم الناس من خشوعهم يوم الاحتفال بالعيد واقفين ، بينما هم من فرط فرحهم بخشوعهم يطيرون في كل لحظة إلى السماء محلقين .

لننظر الى أجدادنا الأوائل ، كيف كانوا يحتفلون بأعيادهم .

لو عرف الذين يزورون في فجر يوم العيد موتاهم في المقابر ليقرأوا الفاتحة على أحجـــار القبور ثم يمضون مستعجلين ، معنى هذه الزيارة لدى العرب الأوائل ، لأذهلهم جهلهم باخلاق اجدادهم .

كان اجدادنا اذا ما تداعوا يوم العيد الى المقابر بعد اداء الصلاة ، فلكي يتصافح الأحياء منهم فوق اجداث الأموات ، في قسم عظيم كانت تلتهب به اعماق نفوسهم ولو لم تتحرك به اطراف شفاههم . في قسم عظيم على ان يعملوا وينتجوا ويقدموا كل التضحية التي يمليها عليهم الواجب حتى يكملوا ما بدأه الآباء والأجداد .

كان أجدادنا لا يجددون يوم العيد ملابسهم ، وإنما يجددون كذلك .. ايمانهم لذلك كان فرحهم بالعيد فرحاً حقيقياً لا ينحصر بالأشكال والطقوس .

كان حقيقياً لأنه كان تعبير المؤمن عن صلته الدائمة بربه ، تعبير المؤمن الذي لم يكن يرضيه طول المكوث في الأرض فهو يلتمس اصعب الطرق الى السماء . يصعد نحو مثله وقيمه دامي القدمين مفتشاً عن اكبر المشقة لأنه لم يكن يرضى إلا بأعظم ثواب .

كان فرحهم حقيقياً لأنه كان الارتباط المتجدد بمعنى الرسالة ، رسالة الفرد في امته ، حتى تستطيع امته ان تقوم بتأدية رسالتها في مجموعة الإنسانية .

الم تكن أبواب الجنة مفتوحة لهم ليلة العيد ، فاذا أسلم مؤمن روحه الى خالقه تلك الليلة ، قالوا عنه شهيد يدخل الجنة بدون حساب .

انظروا كم كان الفرح بالعيد عند اجدادنا حقيقياً وعظيماً حتى يعادل حرمان من كاد يصل اليه ، تضحية الشهيد المناضل : إذ يجود بحياته في ميدان الجهاد .

كان اجدادنا ، وما اشد حاجتنا لفهمهم لا الى تقديسهم فحسب ، كانوا من فرط حبهم للبطولة وإيمانهم بتعبيرها المنتج ، يسيرون الى العيد ، قبل ان يسير اليهم العيد .

قط لم ينتقص من قدر عبد الملك في الشام والرشيد في بغداد ، وابن زياد في الأندلس ، انهم لم يكونوا مع محمد في انطلاقة العرب العظيمة من قلب الجزيرة ما داموا قد عاشوا كل لحمة في حياتهم ، نضالا دائماً في سبيل تحقيق رسالة العرب المتجددة ، فلم يمر عليهم عيد واحد من اعياد محمد ، الا وعاشوه مكافحين منطلقين .

طالما سألت النفس : اين يكون موضعنا نحن العرب في هـــذا العصر من هاتين الفئتين من المحتفلين بالأعياد ؟

انحن من الذين يلامسهم ام من الذين يهزهم فرح العيد ؟

سبعون مليون عربي مثلي ، تكاثرت الأعياد عليهم في كل قطر وفي كل

بلد حتى اصبحت ايامهم كلها اعياداً ، وأصبحت أعيادهم كلها أياماً عادية لا مجال فيها للفرح الحقيقي .

سبعون مليون عربي انقطعت الصلة بينهم وبين التعبير المنتج الفعال عن معنى العيد ، فهم وإن كانوا قد بدأوا يشعرون بثقل القيود ، الا انهم لم ينطلقوا بعد ثائرين على من يكبل أيديهم بتلك القيود .

سر كآبتنا نحن الشباب العرب اذن ، اننا نقرأ ملاهم البطولة التي صنعها اجدادنا ، وهذا هو الماضي نعوده لنتمثل خير ما فيه ، فاذا بنا نغرق فيه . وننظر الى ملاهم البطولة التي يبدعها ابناء الأمم الحرة في هذا العصر ، وهذا هو الحاضر ننطلق اليه لنتعلمه ، فاذا به يدهشنا الى حد الذهول .

وها نحن ، بين عظمة ماضينا ، وتفوق خصومنا ومنافسينا المعاصرين ، نتكلم عن البطولة ولانحياها ، فكأننا نريد ان يتبدل واقعنا الفاسد بفعل ساحر الى مجتمع مثالي يستجمع كل ما هو رائع في حضارة الماضي ، وكل ما هو عظيم في مدنية الحاضر ، دون ان نفعل من اجل ذلك شيئاً .

نحن جيل متنبه في اعماق سجنه ، ولكنه يتطلع الى الحرية من هذه الكوة المفتوحة فوق رأسه على الهواء والنور ، منتظراً أن تأتيه قوة مجهولة من وراء جدران السجن ، لتحرره من إسار الحديد .

ما اكثر الذين ينسون منا ، ان الملائكة اذ كانت تهبط من السماء لنصرة المؤمنين ، فذلك بعد ان كان هؤلاء ينتصرون قبل الوصول الى ميدان المعركة على أنفسهم .

لن تحررنا إذن من قيودنا ، قوة تأتينا من العالم الخارجي المحيط بنا ، أو وة غير منظورة تنزل علينا من السماء . لن تحررنا إلا القوة الحقيقية الكامنة فينا . القوة التي علينا ان نبذل كل طاقتنا لبعثها في أعماق داخلنا الغني بكنوز المواهب .

هذه القوى الكامنة فينا التي تنتظر ان نطلقها من ظلام نفوسنا ، لتتفاعل مع معاني الكون حرارة منتجة ، وحياة خلاقة مبدعة ، هي المصدر الوحيد الذي يستطيع ان يزودنا بكل الطاقة على متابعة الطريق .

علينا ان لا ننسى إذن ونحن في قلب معركتنا مع الأعداء ان علينا ان نخوض معركة اخرى لا تقل عن معركتنا مع الأعداء اهمية ، هذه المعركة هي معركتنا مع انانيتنا ، مع مصالحنا ، مع شهواتنا ، مع أهوائنا ، معركتنا ضد هذه الرواسب التي خلفتها القرون الطويلة في أعماق ضمائرنا ، فحجبت عنها معنى الصدق والصراحة والإخلاص .

اجل . نحن جيل قدر عليه ان يحارب على جبهتين في وقت واحد : على جبهة العدو وعلى جبهة النفس . حربنا حرب على جبهتين ولكن من طراز فريد لن يسمح لنا بان ننقسم إلى فرقتين تحارب كل منهما على جبهة واحدة .

على كل منا ان يخوض المعركة في وقت واحد على الجبهتين معاً .

ولعمري انها معركة قاسية على من لم يتحرروا بعد من سجون انفسهم ، على الذين ما زال يصرفهم عرض المجد عن جوهر الرسالة ، لأن الأبطال الحقيقيين في هذه المعركة لن يكونوا ابداً هؤلاء الذين يحاربون على جبهة العدو فقط ، أبطالا محبوبين ترقبهم عيون الجماهير ، وتصفق لهم أكف الملايين . الأبطال الحقيقيون في هذه الحرب هم الذين يعودون في وقت راحتهم من عناء المناوشة مع العدو ، ليخوضوا الحرب الحقيقية على الجبهة الأخرى حيث يناضلون أنفسهم لوحدهم ، لا تسمع بهم اذن .. او تنظر اليهم عين .

* * *

إذا كانت قيمة حياة الفرد إنما تقاس بمقدار عطائه لأمته ، فما هي قيمة تضحية كل منا نحن الشباب العرب بحياته في سبيل الوطن ، طالما ان حياتنا هذه ما زالت حتى اليوم فقيرة مجدبة ؟

الا تكون التضحية بمثل هذه الحياة ، نوعاً من اعطاء اقل ما يمكن اعطاؤه ، فهي تعبير عن كرم البخيل إذ تضطره الظروف القاهرة للاعطاء ؟

اعطاء الحياة للوطن إذن ، جزء من كل وليس هو الكل ابداً .

لذلك كان الشاب العربي منا ، مدعواً لاعطاء حياته كل المعنى الذي تستحقه حياة إنسان . حتى إذا ما اعطى للأمة حياته يوم تحتاج اليها لم تبكه امه وحدها إذ تضم جسده البارد بين ذراعين حانيتين ، بل تشعر بخسارته امة مناضلة افتقدت فيه جزءاً من حياتها المنتجة ، تشعر بخسارته امة مكافحة افتقدت فيه ذلك الإنسان الحر الذي شعر بمسؤوليته تجاه امته ، وبمسؤولية امته تجاه الإنسانية جمعاء .

أنا لا استطيع ان اسمي العربي الذي يسقط في ميدان المعركة بطلا ، إلا اذا كان قد هيأ نفسه للبطولة ، ففجر في اعماقها كل ما يملكه من قدرة على الاعطاء ، إلا اذا استطاع ان يعطي للوطن كل ذرة من ذاته انتاجاً دائماً .

مثل هذا البطل لا يموت كالآخرين ، ما دام يهتز يوم يموت ، كل وتر مشدود على قيثار نفسه ، فتغادره روحه نغماً رائعاً تحوم حول الموضع الذي يسقط فيه ، لتظلله بالحان عبقري ثائر ، صاغ موسيقاه من حرارة انفاسه اللاهثة ونور عيونه الساهرة ، موسيقى خالدة لا تذكر الأحياء من يسمعونها بعد ذلك ، إلا بعظمة البطولة المنتجة إذ تنبثق من ألم بطل مناضل لتعبر عن فرحه الحقيقي بما اعطاه للوطن قبل ان يموت .

كان عرب الصحراء يتعرفون من يمر بهم من عرب المدن بمقدار بذلهم وكرمهم ، قبل ان يعرفهم هؤلاء بأنفسهم .

هكذا سمع العالم بالعرب ، قبل ان يعرفهم ، فما ان مروا به حتى عرفهم قبل ان يعرفوه على انفسهم . كلما وقفت اقول لنفسي : انا عربي ، سمعت صوتاً يجيبني من أعماق القرون البعيدة : أجل انت عربي .. أنت واحد من سبعين مليون عربي لو أحصيتم أنفسكم عدداً ، ولكن .. ما هي قيمتك لو قدرت نفسك في عطاء ما كان يجب ان يعطيه للامة العربية ، سبعون مليون عربي مثلك ؟

فلنعد إلى انفسنا إذن ولنبدأ باعطاء كل ما في طاقتنا اعطاؤه للوطن .

أليس من حق الإنسانية ان لا تتعرف علينا إلا كما تعرفت على اجدادنا من قبل ؟ !

أليس من حق الإنسانية ان لا تتعرف علينا إلا سبعين مليون كريم ، إذا قال كل منهم : انا عربي ، رفع الباقون رؤوسهم ؛ معتدين بكرمه امام العالم ؛ هاتفين من أعماق ارواحهم : ونحن مثلك أيها العربي .. عرب .

ما أكثر ما قلت للنفس وانا اناضلها نضالا مراً : ليتني استطيع ان أموت اكثر من مرة واحدة في سبيل وطني ، علني استطيع ان اعوض على جبهة العدو ، ما فاتني اعطاؤه للوطن على جبهة النفس .

ما اكثر ما قلت : ياليتني استطيع ان اموت ، عشرين مرة في سبيلك يا وطني . لعل الأجداد الذين يرقبونني من اعماق القرون .. يرضون عن عشرين انساناً .. يموتون في عربي واحد .

طالما قلت للنفس ياليت . وطالما اجابني واقع وطني : ان لا مجال ، لا مجال لك ان تموت الامرة واحدة ، فهيء للوطن حياة مليئة بالعطاء ، غنية الطاقة المنتجة ، فياضة بمعاني الخير .

اجمع في نفسك مزايا الانسان العربي المنتج حتى ينطلق الجيل المقبل من قلب هذه المرحلة الأولى ، مناضلا في سبيل استكمال شروط العربي الإنسان .

سر كآبتنا — وأنا أسأل نفسي عنه في كل ليلة عيد — يكمن في اننا نحاول جزءاً من الفرح قبل ان نعيش الألم كله .

لنتألم اذن بعمق ... اذا كنا نريد ان نثور بصدق .

لنتألم بكل ما في وسعنا من طاقة على الألم ، اذا كنا نفتش ، في ليالي العيد عن معنى الفرح الحقيقي .

باريس

اديب نحوي